بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

في رحاب الهدي النبوي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

ففي هذا الكتاب طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، التي تشتمل على هداية الناس إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخرة...

أدعو الله تعالى أن ينفع به كل قارىء، وأن يغفر لي ولوالدي وللمسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه آمين.

أ.د/ أحمد عمر هاشم

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**[1].

اللغة:

(سمعت رسول الله ﷺ يقول...): الكلام على حذف مضاف، أي: سمعت كلامه أو صوته وجملة «يقول»، في محل نصب حال، أي: حال كونه يقول وهي حال مقارنة.

(إنما الأعمال بالنيات): وأصل «إنما» «إن» التي تنصب الاسم وترفع الخبر، وقد زيدت عليها «ما»، فكفتها عن العمل وعن اختصاصها بالدخول على الجملة الإسمية، فصارت تدخل على الجملة الإسمية كما في الحديث وعلى الجملة الفعلية أيضاً.

والأعمال: هي حركات البدن، أو بعض أعضائه وقيل فيها: إحداث أمر قولاً كان أو فعلاً بالجارحة أو بالقلب، وإذا أطلق العمل ينصرف إلى عمل الجوارح، والمراد بها في الحديث: العبادات التي تفتقر إلى نية. والنية: لغة: القصد، وشرعاً: قصد الشيء مقترناً بفعله، فإن تراخى عنه سمي: عزماً، والباء في قوله **«بالنيات»**: للمصاحبة، ويحتمل أن تكون للسببية، بمعنى: أنها مقومة للعمل، فكأنها سبب في إيجاده. وفي الجملة أسلوب قصر، طريقه إنما فقد قصر، للفعل وصحته على كونه مصحوباً لنية.

(وإنما لكل امرىء ما نوى): «وإنما» هنا مثل الأولى و«لكل امرىء» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«ما نوى» مبتدأ مؤخر، و«ما» اسم موصول والعائد تقديره: «الذي نواه»، ويجوز أن تكون مصدرية، فلا تكون في حاجة إلى

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 1) و(الحديث: 54)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4904).

عائد، والمعنى: وإنما لكل امرىء نيته، أي: منويُّه بمعنى: جزاء ما نواه، وفي هذه الجملة نوعان من الحصر **الأول**: قصر المسند على المسند إليه؛ لأن المراد: وإنما لكل امرىء ما نواه، **والثاني**: التقديم والتأخير.

(فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله...): الهجرة لغة: الترك، والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه من غيره. وشرعاً: ترك ما نهى الله عنه، والفاء: للتفريع أو فصيحة، و«الدنيا» يراد بها: ما في الحياة من متاع كالنساء والمال والأولاد، والخيل والأنعام وسائر الشهوات والمطالب الدنيوية.

(يصيبها): أي: يحصلها.

(ينكحها): أي: يتزوجها.

البيان والتحليل:

في هذا الحديث الشريف يرسي الرسول ﷺ، قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية التي يقوم عليهما بناء الأعمال والثواب:

الأولى: تعتبر الأساس الذي يقوم عليه كل عمل، فيكون كاملاً وصحيحاً.

الثانية: جزاء كل عامل، ولذا كان هذا الحديث من الأحاديث الهامة التي تقوم عليها أصول الإسلام.

قال الإمام أحمد بن حنبل: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر: **«إنما الأعمال بالنيات»**[1]، وحديث عائشة: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**[2]، وحديث النعمان بن بشير: **«الحلال بيّن والحرام بيّن»**[3].

واتفق كثير من العلماء على أن هذا الحديث ثلث الإسلام، ومنهم من قال:

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 2697)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4467)، والإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 240).

(3) أخرجه البخاري في (الحديث: 52) و(الحديث: 2051)، والإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 4/ 267) و(الحديث: 4/ 271) و(الحديث: 4/ 275).

ربعه، واختلفوا في تعيين الباقي، ووجه البيهقي كونه ثلث العلم، بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامه الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها، ومن ثم ورد: نية المؤمن خير من عمله.

وكان السلف رضوان الله عليهم يحبون البدء بهذا الحديث حثاً للطالب على العناية بحسن النية، والإخلاص لله تعالى.

وقد بينا النية لغة وشرعاً، وهي تعني: تمييز بعض العبادات عن بعض، كالظهر من العصر، أو تمييز العبادات عن العادات: كالغسل الذي يقصد به التطهر أو التنظيف، وهكذا.

وقال ابن دقيق العيد: الذين اشترطوا النية قدروا «صحة الأعمال»، أي: «إنما صحة الأعمال بالنيات»، والذين لم يشترطوها قدروه «كمال الأعمال»، أي: «إنما كمال الأعمال بالنيات»، ورجح الأول بأن الصحة أكثر لزوماً للحقيقة من الكمال، فالحمل عليها أولى، وفي هذا الكلام إيهام أن بعض العلماء لا يرى اشتراط النية، وليس الخلاف بينهم في ذلك إلا في الوسائل، وأما المقاصد فلا اختلاف بينهم في اشتراط النية، اهـ.

وجملة: **«إنما لكل امرىء ما نوى»**، قيل: إنها تأكيد لما أفادته الجملة الأولى، وهو الاعتداد بالنية أو طلب النية في كل عمل. والأصح أن هذه الجملة للتأسيس لا للتأكيد، وذلك لأنها أفادت أموراً جديدة زائدة على ما أفادته الجملة الأولى، ومن هذه الأمور:

أولاً: أنه لا يصح لإنسان أن يكون غيره نائباً عنه في النية؛ لأن تقدير المعنى: لكل امرىء نيته، فلا يصح لأحد أن ينوي عن عمل غيره، وأما صحة النية من الولي عن الصبي الذي لا يميز، فذلك لمعنى آخر يخصه، وهو أنه ليس متأهلاً للنية لعدم تمييزه.

ثانياً: أنها أفادت أهمية الإخلاص في العمل حتى يستحق صاحبه الثواب عليه، ففي هذه الجملة تحذير من الرياء.

ثالثاً: إذا تمخضت نية الخير في الأمور العادية، فإن صاحبها يثاب عليها،

كالعبادات تماماً كالأكل للتقوى على الطاعة، والمباشرة بهدف إعفاف الزوج نفسه وزوجته، وهكذا.

رابعاً: إذا انعقدت النية على عمل ما من الأعمال، وصمم على فعله فإن له ثواب نيته سواء تحقق العمل أم لم يتحقق، يدل على ذلك ما روي عن جابر ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض**»[1]، وفي رواية: «**حبسهم العذر**»، وفي رواية: «**إلا شركوكم في الأجر**»[2]، رواه البخاري عن أنس، ومسلم عن جابر.

وتحمل النية في الحديث على معناها اللغوي؛ لأنه الذي يشمل النية الحسنة أو السيئة، قال الحافظ ابن حجر: والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليحسن تطبيقه على ما بعده وتقسيمه أحوال المهاجر، فإنه تفصيل لما أجمل، اهـ.

ثم فرع ـ بعد ذلك ـ على القاعدتين السابقتين بقوله: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله**... إلخ»، تبين أن المهاجر إذا كانت هجرته في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فهو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً، أما إذا كان المهاجر طالباً من طلاب الدنيا، أو راغباً في امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه تحقيراً لرغبته، فعدّى الهجرة في الجملة الثانية باللام التي تشير إلى الغرض الباعث على الفعل، إشارة إلى أن الهجرة من أجل الدنيا، أو المرأة مذمومة إذا كان الغرض منها خالصاً لهما.

ولكن كيف يتحد الشرط والجزاء، مع أن الأصل أن يكونا متغايرين؟

ولنا على هذا جوابان:

الأول: أن التغاير قد يقع باللفظ، وهذا هو الأغلب، وقد يكون التغاير بالمعنى، ويعرف من سياق الكلام كقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: 71]، وهو مؤوَّل على إرادة المعهود إلى المستقر في النفس، أو مؤوَّل على إقامة مقام السبب لاشتهار السبب، وقد قيل: إذا اتحد لفظ المبتدأ والخبر والشرط والجزاء، علم منهما المبالغة إما في التعظيم وإما في التحقير.

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 4909، 4910).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 2839).

وهذا الجواب بناء على أن كلمة «هجرته» في الجملتين مبتدأ خبره الجار والمجرور الذي بعده.

الثاني: أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بـ«هجرته» والخبر محذوف فيهما، والتقدير: فهجرته إلى الله ورسوله مقبولة، وفي الجملة الثانية: فهجرته إلى ما هاجر إليه مذمومة.

وقد وقعت الهجرة في الإسلام على وجهين: **الأول**: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن، كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة، **والثاني**: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وذلك بعد أن استقر النبيّ ﷺ في المدينة وهاجر إليها من أمكنه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة، فانقطع الاختصاص وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً بعد الفتح.

وصرح في العبارة الأولى بالاسم الظاهر فقال: «**فهجرته إلى الله ورسوله**» لتعظيم شأن الهجرة وشرفها، والتبرك باسم الله ورسوله، ولم يظهر في العبارة الثانية، بل قال: «**فهجرته إلى ما هاجر إليه**»، تحقيراً لشأن الدنيا والمرأة وتحذيراً منهما، وحثاً للإعراض عنهما حيث أعرض عن التصريح بذكر اسمهما، وقد عطف المرأة على الدنيا مع أنها داخلة ضمن الدنيا وفي عمومها ليؤكد التحذير منها، فإن فتنتها شديدة، فقد ورد في الحديث: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[1]، رواه الشيخان، وللتنبيه إلى ما قيل: بأن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها: أم قيس، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر، فهاجر فتزوجها، فسمي: مهاجر أم قيس.

ولئن ورد أن هذا هو سبب ورود الحديث، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وبهذا الحديث يتبين لنا أهمية الإخلاص في العمل، بحيث لا تشوبه شائبة ما من شوائب الرياء، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]، وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5096)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6880) و(الحديث: 6881).

بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: 114]، وهذا وعد من الله تعالى بعِظَم أجر المخلصين، وإذا كان الحديث قد نص على الهجرة، فما هي إلا مثال من أمثلة العمل، وعلى ضوئها تقاس سائر الأعمال. . وهكذا كل عمل يشرك فيه صاحبه أحداً غير الله فهو متروك ولا وزن له، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: **«يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**[1].

الاستنباط:

ويستنبط من هذا الحديث بالإضافة إلى ما سبق:

1 ـ أهمية النية والإخلاص في العبادات والمعاملات، والتحذير من الرياء، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، واستدل البعض بهذا الحديث على أن النية شرط في صحة الأعمال، وذهب البعض إلى أنها شرط في كمال الأعمال.

2 ـ يحاسب الإنسان على حسب نيته ثواباً أو عقاباً.

3 ـ وجوب الهجرة من بلاد الكفر والخوف إلى بلاد الإيمان والأمن.

4 ـ التحذير من الدنيا وزخرفها، والتحذير من فتنة النساء؛ لأنها أضر ما يكون على الرجال.

5 ـ بقاء الهجرة من الكفر والفتن محافظة على الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: 97]، وفي معنى الهجرة العامة: الهجرة لكل ما نهى الله عنه، كما قال ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**[2].

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 7400).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 109)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 161).

الحلال والحرام

روى الإمام مسلم بسنده عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1].

معاني المفردات:

(الحلال بيّن والحرام بيّن):

الحلال: هو ما لم يرد دليل بتحريمه، فيشمل ما سكت عنه، وقيل: ما ورد دليل بحله فلا يشمل السكوت عنه، **والحرام** ما ورد دليل بالمنع منه، وقيل: ما لم يرد دليل بحلّه، ومعنى «**بين**»: أي: ظاهر بالنسبة إلى ما دل عليه بلا شبهة.

(وبينهما مشتبهات): أي: أمور مشكلة، لما فيها من شبه الطرفين المتعارضين، فمرة تشبه هذا، وأخرى تشبه ذاك، وفي رواية: «مشبهات» بكسر الباء: أي شبهت نفسها بالحلال، **(لا يعلمها كثير من الناس)**: أي: لا يعرفون حكمتها، أمن الحلال هي أم من الحرام؟ ومفهوم العبارة: أن القليل من الناس وهم العلماء المجتهدون يعرفون حكمها بنص أو إجماع أو قياس ونحو ذلك، بل قد تقع الشبهة حيث لا يظهر لهم ترجيح أحد الدليلين.

(فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه): أي: تحفظ منها، وابتعد عنها، وجعل بينه وبينها وقاية و«**استبرأ**» أي: برأ دينه من النقص وعرضه من الطعن فيه،

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 4070).

فابتعاده عن المشبهات جعله يطلب البراءة ويحصلها، وفي رواية «فمن اتقى الشبهات» وهي جمع شبهه بمعنى: مشتبهة.

(ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى): و«من» تكون شرطية وعلى هذا ففعل الشرط هو قوله: «وقع» وجوابه: وقع في الحرام، ويصح أن تكون «من» موصولة وعلى هذا فتكون مبتدأ والخبر «كالراعي»، والمعنى: مثله مثل راع يرعى مواشيه حول «الحمى»: وهو كل ما يحمى.

(يوشك أن يرتع فيه): أي: يقرب أن يقع فيه.

(ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه): «ألا» أداة تنبيه تشير إلى أن ما بعدها من الأمور المهمة التي ينبغي أن يلتفت إليها، و«الواو» عاطفة على محذوف والتقدير: ألا إن الأمر كذلك وأن لكل ملك حمى، أي: مكان خصب جعله خاصاً لرعي دوابه وحذر وأنذر من رعى فيه بالعقوبة **«ألا وإن حمى الله محارمه»** وفي رواية البخاري بدون أن تعقبها واو العطف، لبعد المناسبة بين حمى الملوك وحمى ملك الملوك سبحانه، وعند مسلم بواو العطف، لوجود المناسبة من جهة ذكر الحمل فيهما.

(ألا وإن في الجسد مضغة):

(المضغة): هي القطعة من اللحم تكون بمقدار ما يمضغ.

الشرح:

الإسلام هو دين العلم والعمل، يدعو أتباعه لمعرفة أصوله وفروعه، والوقوف على الظاهر منها والخفي، حتى إذا ما جاء دور العمل كان منبعثاً من نور، وسائراً على هدى.. كما ينبه إلى مستقر العقيدة في الإنسان، ومصدر أعماله كلها وهو «القلب»، فبصلاحه يتم صلاح سائر الجسد، وبفساده يكون فساد سائر الجسد.

وهذا الحديث يوضح بيان الحلال والحرام وما بينهما، ويضع الضوابط الدقيقة لمنع أية شبهة تتسرب إلى المال وغيره، فالمال يمثل أقصى شهوات النفس البشرية، ولهذا يأمر الله بتناول الحلال الطيب قبل أن يأمر بعمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، إذ كيف تقبل عبادة، أو يستجاب دعاء والمال من حرام؟ قال ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال**: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ **وقال**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟**»[1].

والحديث الذي معنا يقطع طريق الريبة إلى النفوس، ويحد من أطماع المتلاعبين بالكسب والعمل، أو العابثين بشتى الوظائف الاجتماعية: فيقرر حقيقة هي من الوضوح بمكان بحيث لا يغفلها أحد، ولا تغيب عنه ذهن عاقل.

«**الحلال بين والحرام بين**» أنه واضح للخاصة والعامة، معلوم من الدين بالضرورة، أي: لا يجلهه أحد ما بداهة، فلا شبهة فيه ولا غموض.

ومن أمثلة الحلال: أكل الطيب المباح، وشرب الطيب المباح ولبس الأثواب المباحة...

ومن أمثلة الحرام: أكل الربا، وشرب الخمر، والسرقة وما إلى ذلك، ومن رحمة الله بالإنسان أنه بيَّن له الحلال من الحرام، والطيب من الخبيث وتكفل سبحانه بشأن التحليل والتحرم عن طريق الوحي الإلهي المعصوم، فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقامت السُّنة الشريفة كمصدر ثان للتشريع بجوار القرآن في تفصيل ما أجمل وبيان ما يحتاج إلى توضيح، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، قال العباس: والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً وأحل الحلال وحرم الحرام، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك إلى بيان أمر ثالث: وهي الأمور المشتبهة «وبينهما

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 2343)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2989)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» في (الحديث: 2/ 328).

مشبهات لا يعلمها كثير من الناس»، أي: بين الحلال والحرام أمور مشتبهة على كثير من الناس حكمها، فلا يقطعون فيها برأي ولا يقفون على حكمها بالتعيين أتكون من الحلال أم لا؟ والسبب في هذا، أنه يتنازعها دليل الحل فيظن أنها حلال، ودليل الحرمة فيظن أنها حرام من جهة عموم الأدلة.

ولكن ما حكم مثل هذه الأمور؟

ذهب بعض العلماء إلى أنها حرام، وقال البعض: إنها مكروهة، وقيل: الوقف فلا يحكم فيها بحل ولا حرمة؛ لأنها غير واضحة.

والذي نراه: هو الأخذ بالأحوط، فبالنسبة لمن لم يقطع في هذه الأمور برأي واضح الدليل معين، عليه أن يسأل الراسخين في العلم وهم القلة الذين أوتوا بصيرة مستنيرة، وعقلية علمية راجحة ولديهم القدرة على الجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

أما إذا اختلفت آراء العلماء باختلاف استظهار الأدلة، فعلى المسلم أن يحتاط لدينه فيتوقف عن هذه الأمور، ومن أمثلة ذلك في عصرنا الحاضر «فوائد صناديق التوفير» «شهادات الاستثمار»، وما يشبه ذلك من المعاملات الأخرى؛ لأن الرسول ﷺ يقول في تتمة الحديث: «**فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه**»، أي: إن من حذر من الشبهات وتوقى الاقتراب من مواطنها فقد طلب البراءة وحصل عليها فحافظ على دينه من النقص، وعلى عرضه من الطعن فيه، وبهذا يفهم أن من اقترب من هذه الأمور فقد تعرض للطعن فيه، فعلى المسلم أن يحافظ على أمور دينه ومروءته.

وفي الحديث: «**إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها**»[1].

وعلى العالم ألا يفعل شيئاً قد يكون ظاهره مدعاة لسوء الظن به حتى يبين وجه

(1) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 4/ 170).

الحقيقة فيه، وعلى الناس عامة ألا يعرضوا أنفسهم للقيل والقال؛ بل عليهم إذا أحسوا بشيء من هذا القبيل أن يبينوه حتى لا نظن بهم الظنون.

وفي الصحيحين: أن صفية بنت حيي زوج رسول الله ﷺ جاءت تزوره حين اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ثم قامت فقام معها يودعها، فمر بهما رجلان من الأنصار ورأياه واقفاً معها، فقال: «**على رسلكما إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وهل نظن بك إلا خيراً فقال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وقد خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً**»[1].

ثم يبين الحديث بعد ذلك مغبة ما يؤول إليه أمر هذه الأمور المشتبهة، بأن من وقع فيها وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، فإن فعل الشبهات يقرب من الحرام؛ لأن الكثرة منها تجعل صاحبها يصادف الحرام دون أن يشعر وأن كثرة تعاطي الشبهات والتساهل في أمرها تجعله يجرؤ على الوقوع في الحرام.

وإنما أثر التعبير بقوله: «**ومن وقع..**» دون أن يقول: «ومن فعل الشبهات» مثلاً لينبه على أن تعاطي الحرام والوقوع فيه يكون نتيجة الإكثار من الشبهات والرغبة فيها، حتى يسقط فلا يستطيع التخلي عنها وعندئذٍ يقع في الحرام.

وإذا كان لكل ملك حمى يحميه عن الناس، ويمنع أحداً ما أن يدخل فيه ومن دخله أوقع به العقوبة، ومن أجل هذا لا يقاربه أحد رهبة وخوفاً، وإذا كان الحال كذلك فإن حمى الله تعالى ـ وهي محارمه ـ أولى بالبعد عنها وأجدر ألا يقربها الناس، كالمعاصي من قتل أو زنا أو سرقة أو غيبة، وغير ذلك كل هذا يمثل حمى الله من دخلها وارتكب شيئاً منها كان موضع غضب الله وعذابه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187].

أما مستقر الصلاح في الإنسان، ومبعث الخير والبر فيه فهو القلب، ولهذا يبرز الحديث أهميته كأساس في توجيه صاحبه إلى الحلال، والبعد عن الحرام، فيقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة..**» فالقلب السليم هو مركز الدائرة في الإنسان، ونظرة

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 2035) و(الحديث: 2038)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 5643).

الإسلام إلى القلب من أدق الحكم السامية، فعليه مدار العمل كله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 88، 89]، بل إن الإيمان نفسه لا يستقيم إلا إذا كان التصديق نابعاً من القلب السليم، قال ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه**».

وهكذا نرى ما لهذا الحديث من منزلة هامة في الدين، لدرجة أن قال جماعة: هو ثلث الإسلام وأن الإسلام يدور عليه وعلى حديث: (**الأعمال بالنيات**) وحديث: (**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**)، وقال أبو داود السختياني: يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1]، وقيل: حديث: (**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس**) وقيل في هذا:

عمدة الدين عندنا كلمات ... مسندات من قول خير البرية
اترك المشبهات بأزهد ودع ما ... ليس يعنيك واعملن بنية

ما يؤخذ من الحديث:

1 ـ رحمة الله بعباده وهدايته لهم حيث لم يكلهم إلى عقولهم البشرية وأفكارهم المتضاربة القابلة للخطأ والصواب؛ بل بين لهم الخير والشر والحلال من الحرام، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: 115].

كما جعل دينه يسراً سمحاً وما جعل عليكم في الدين من حرج.

2 ـ أن من ترك الأشياء المشتبهة بعزم وإخلاص كان أشد حرصاً على ترك المحرمات الظاهرة والذنوب الكبيرة بل والصغيرة ففي الحديث: «**من ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك**»[2].

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 13)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 168)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2515)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 5031)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 66)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 198).

(2) أخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 5/ 264) و(الحديث: 5/ 334)، وذكره **ابن حجر** في «فتح الباري» (الحديث: 1/ 128).

3 ـ استدل بعض العلماء بهذا الحديث على قاعدة: «سد الذرائع»، وهي تحريم كل ما يؤدي إلى معصية، فتحرم الوسائل والطرق التي من شأنها أن توصل إلى المحرمات فتحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية وإن لم تحدث معصية، وفي عصرنا هذا أمثلة كثيرة تؤدي وسائلها للمحرمات مثل: «دور السينما» والمسرح، وأماكن الترفيه المختلطة، وغير ذلك كثير.

4 ـ أهمية القلب والعمل على تزكيته وإصلاحه عن طريق العبادات والتمرس على مكارم الفعال والنزعات النقية، وصقله بالقرآن والعفة حتى يتم صلاحه فيتم صلاح سائر الجسد، ومن أهم وسائل الإصلاح أكل الحلال والبعد عن الحرام.

5 ـ احتج بعض العلماء بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس على خلاف بينهم وبين البعض الآخر.

بدء الوحي[1]

إنَّ أول قصة من قصص السنة الشريفة، هي قصة بدء الوحي. والوحي في اللغة: هو الإعلام في خفاء، وفي الشرع: الإعلام بالشرع، ويطلق الوحي ويراد به الموحي. وهو كلام الله الذي أنزل على النبي ﷺ.

ولقد بيَّن الله تعالى أنه أوحى إلى رسوله الخاتم كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: 163 ـ 164]

وقد قدم ذكر نوح؛ لأنه أول نبيٍّ أرسل، أو لأنه أول نبي عوقب قومه حين كذبوا وأنكروا، وفي هذا تهديدٌ لمن ينكر الوحي الإلٰهي بعذابٍ عاجل.

كما يتضح من الآية الكريمة: أنَّ الوحي قد حدث لكثيرٍ من الأنبياء قبل رسول الله ﷺ، فلا غرابة في الوحي إليه. فقد أوحى الله إليه كما أوحى إلى من قبله من الرسل، وصفة الوحي إلى النبي ﷺ توافق صفة الوحي إلى من تقدمه من النبيين، حيث يبدأ أولاً بالرؤيا كما روى أبو نعيم في الدلائل، باسنادٍ حسن عن علقمة ابن قيس صاحب ابن مسعود قال: إنَّ أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة، وقصة بدء الوحي كما رواها الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب «بدء الوحي» قال: حدثنا يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

---

(1) الوحي في اصطلاح الشرع: إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إما بكلام أو رسالة ملك أو منام أو إلهام.

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق[1] الصبح.

ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد - قبل أن ينزع[2] إلى أهله ويتزود[3] لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارىء**» قال: «**فأخذني فغطني**[4] **حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني**»[5] فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد ﵂ فقال: «**زملوني زملوني**»، فزملوه[6] حتى ذهب عنه الروع[7] فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل[8] وتكسب المعدوم وتقري الضعيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني. فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة: يابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس[9] الذي نزل الله على

(1) فلق الصبح: ضياؤه.
(2) ينزع: يرجع
(3) يتزود: يتصحب الزاد.
(4) غطني: ضمني.
(5) أخرجه البخاري في (الحديث: 4953)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 401)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 377).
(6) فزملوه: لفوه.
(7) الروع: الفزع.
(8) الكل: من لا يستقل بأمره.
(9) الناموس: جبريل.

موسى، يا ليتني فيها جذعا[1] ـ ليتني أكون حياً ـ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وأن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب[2] ورقة أن توفي وفتر الوحي.

تلك هي قصة بدء الوحي. ولقد كمل الله تعالى لرسوله ﷺ من مراتب الوحي، وأنواعه مراتب كثيرة ذكر منها ابن القيم ثماني مراتب:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**»[3]. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «القناعة» ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود.

المرتبة الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس. وكان أشده عليه حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها.

وقد ثبت في صحيح مسلم[4]: «**لم أره** ـ يعني جبريل ـ **على صورته التي خلق عليها إلا مرتين**»، وبيَّن الإمام أحمد[5] في حديث ابن مسعود أن الأولى كانت عند

(1) جذعاً: المراد شاباً.
(2) لم ينشب: لم يلبث.
(3) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (الحديث: 14/ 304).
(4) أخرجه مسلم في (الحديث: 438).
(5) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 395) و(الحديث: 1/ 407) و(الحديث: 6/ 236).

سؤاله إياه أن يريه صورته التي خُلق عليها، والثانية عند المعراج، وللترمذي[1] عن عائشة: لم ير محمدٌ جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى ومرة في أجياد.

السادسة: ما أوحاه الله إليه ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها وهو فوق السمٰوات.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك. وهذه ثابتة لموسى بنص القرآن ولنبينا ﷺ في حديث الإسراء.

الثامنة: وهي التي زادها البعض، وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى، كما ذكر ابن القيم.

ونلاحظ في قصة بدء الوحي بأن أول بداية كانت الرؤيا الصالحة، وهي الصادقة التي ليست بأضغاث أحلام. وبدىء بها ليكون في ذلك تمهيد وتوطئة لليقظة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، في وضوحها وتحقيقها، ثم حبب إليه الخلاء وهو الخلوة وفيها الفراغ والانقطاع عن صخب الحياة اللاهية، وضجيجها وعبثها، حيث يطمئن القلب ويستريح، ويتفرغ لربه. فتتفجر ينابيع الحكمة. وكان يخلو في غار حراء متعبداً، ومتبعاً الحنيفية، وهي دين إبراهيم عليه السلام وذلك في شهر رمضان، وكان يتزود لذلك مستصحباً الزاد، وإنما خص حراء بالتعبد فيه، لأنه يرى بيت الله منه وهو عبادة، فكان له عليه السلام فيه ثلاث عبادات: الخلوة والتحنث والنظر إلى الكعبة، وظل كذلك حتى أذن الله تعالى للنور أن يشرق وللحق أن يظهر واضحاً، وللباطل أن يزهق وللظلام أن ينقشع فجاءه الأمر الحق وأتاه الملك، فقال: اقرأ قال: «**ما أنا بقارىء**» ثلاثاً والمراد بقوله: «**غطني**» ضمني وعصرني حتى بلغ الغط غايته. وقيل في الحكمة من هذا الضم: ليتفرغ قلبه من النظر إلى الدنيا ويقبل بكليته إلى ما يلقى عليه. وكرره للمبالغة، وقيل: الغطة **الأولى**: ليتخلى عن الدنيا، **والثانية**: ليتفرغ لما يوحى إليه، **والثالثة**: للمؤانسة، ولذا لم يذكر فيها بلوغ الجهد، بعد ذلك أرسله الملك وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 3068).

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: 1-3]، أي: أنه لا يقرأ من عند نفسه، ولا بقوته ومعرفته. بل إنه يقرأ بحول الله وقوته وعونه ورعايته، فهو الذي يعلّمه ويعلم أمته كما خلقهم وهو على كل شيء قدير.

ثم رجع رسول الله ﷺ بهذه الآيات أو بتلك القصة، فدخل على خديجة بنت خويلد ﵂ فقال: «**زملوني زملوني**» فزملوه، أي: لفوه حتى ذهب الفزع، وفي قوله: «**لقد خشيت على نفسي**» مع قوله: «**يرجف فواده**» ما يدل على ما حدث من انفعال بسبب الوحي، لدرجة أنه كان يخشى على نفسه الموت من شدة الرعب أو المرض، وقد جزم به ابن أبي حمزة، أو يخشى دوام المرض، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، هذا اليقين الذي دفعها إلى القسم على ذلك تستدل عليه بثاقب فكرها، وحصافة عقلها ووزنها للأمور بالميزان الصحيح، تستدل على ذلك بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال. وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل وذلك كله مجموعٌ فيما وصفته به: إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وهو من لا يستقل بأمره. وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وهي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم، إنه يعين على نوائب الحق وحوادثه ونوازله.. ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة، فلما أخبره الخبر قال ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى والناموس صاحب السر. وتمنى ورقة أن يكون عند ظهور الدعوة إلى الإسلام شاباً ليتمكن من نصرة الرسول ﷺ عندما يخرجه قومه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَوَ مخرجيَّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وأن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب - أي يلبث - ورقة أن توفي وفتر الوحي.

وكانت مدة ابتداء الوحي بالرؤيا ستة أشهر، فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر المولد وهو ربيع الأول بعد أن أكمل أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في شهر رمضان، والمراد بفترة الوحي تأخر نزول القرآن ومدة فترة الوحي قدرت بثلاث سنين وهي ما بين نزول «اقرأ» و«يا أيها المدثر» وحكمة فتور الوحي: ذهاب ما كان وجده ﷺ **من الروع وليحصل له التشوق إلى العود، وأول ما نزل عليه بعد فترة الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾**، كما يدل عليه حديث جابر: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين**

السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني» فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: 1، 2] إلى قوله: فحمي الوحي وتتابع[1].

ومن دروس هذه القصة: مؤانسة من نزل به أمرٌ بتيسيره عليه، وإن من نزل به له أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه.

وفي رد السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها دلالة على أن مكارم الأخلاق وفعل الخير سبب للسلامة من مصارع الشر والمكاره. فمن كثر خيره حسنت عاقبته ورُجِيَ له سلامة الدين والدنيا.

كما يؤخذ من هذه القصة جواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان لمصلحة وليس بباطل ولا يوقع الممدوح في غرور.

وبداية الوحي بهذه الآيات الكريمة، وهذا التوجيه الإلٰهي العظيم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 1] هذه البداية تشير إلى كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعل وحركة وسكون إنما هو باسم الله. فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يصدر في أمرٍ من الأمور عن نفسه:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3-4]. . إنها بداية استهلت حياة الدعوة إلى الله. واستهلت رحلة هذه الرسالة بالقراءة والعلم والمعرفة، فالإسلام هو دين العلم والمعرفة. فبالعلم يتعرف الناس على خالقهم ورازقهم وعلى دينهم وعقيدتهم. وما يصلحهم في الدنيا، ويسعدهم في الآخرة. وإن هذا الأمر: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ صاحب التربية والنعمة بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير.

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 4922) و(الحديث: 4923) و(الحديث: 4953)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 404)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 3325).

الإسراء والمعراج

من قصص السنة النبوية قصة الإسراء والمعراج، وقد تحدث عنها القرآن الكريم، وفصلتها السنة المطهرة موضحة ما اشتملت عليه من آيات وعبر، وكاشفة ما أفاءه الله تعالى على المحيط الإسلامي من عطاءٍ غامر، ورحمة واسعة..

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطستٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل قال: هل معك أحداً؟ قال: نعم، معي محمدٌ ﷺ فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجلٌ قاعدٌ على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى فقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، حتى عرج بي إلى السماء الثانية. فقال لخازنها: افتح فقال له الخازن مثل ما قال الأول، ففتح**» قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم. غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس:

فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: «**من هذا؟ قال: هذا إدريس ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم**

فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم ﷺ».
قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أنَّ ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: **«ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»**، قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: **«ففرض الله على أمتي خمسين صلاة. فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال موسى: فارجع إلى ربك، فإنَّ أمتك لا تطيق ذلك، فراجعني فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. قال: راجع ربك فإنَّ أمتك لا تطيق. فرجعت فوضع فقال: هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»**[1].

في هذه القصة الصحيحة من قصص السنة الشريفة، بيانٌ لمعجزة الإسراء والمعراج التي خصَّ الله تعالى بها نبيه عليه الصلاة والسلام ليريه من آياته، ما تقر به عينه، فيشهد ما لم يشهده أحدٌ ولتتضح منزلته صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الاسراء: 1].

وفي معراجه الشريف، صلوات الله وسلامه عليه، أطلعه رب العزة على كثير من الآيات وأوحى إليه ما أوحى، قال سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم: 1-11].

وقد سبق هذه الرحلة إعدادٌ إلهي لنفس الرسول ﷺ، حيث جاءه جبريل عليه السلام، وشق صدره الشريف ثم غسله بماء زمزم كما ورد في الحديث الصحيح، ثم أخذ بيده فعرج به إلى السموات، وارتقى من سماءٍ إلى سماء وهكذا إلى أن وصل إلى هذا الموضع الذي تحدث عنه في قوله. كما روى البخاري: **«ثم عرج بي حتى ظهرت**

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 349) و(الحديث: 1636)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 413)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 448)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 1399).

لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ثم قال: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة»[1] وظل يخفف الله منها إلى أن صارت خمساً.

قال الحافظ ابن حجر: والحكمة في وقوع فرض الصلاة ليلة المعراج أنه لما قدس ظاهراً وباطناً حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة - ومن شأن الصلاة أن يتقدمها الطهور - ناسب ذلك أن تفرض الصلاة في تلك الحالة، وليظهر شرفه في الملإ الأعلى. ويصلي بمن سكنه من الأنبياء والملائكة وليناجي ربه ومن ثم كان المصلي يناجي ربه جلّ وعلا.

ويتضح لنا كيف رسمت هذه المعجزة منهجاً مشرقاً للحياة الإسلامية وكيف طالعت دنيا الناس بقدرة إلٰهية عظيمة، سبقت تقدم العلم الحديث واكتشافاته. وبها تمخضت قلوبٌ وتبين المخلص للإسلام من غيره، كما كشفت عن صور ونماذج لمن اعتدل بفطرته، ولمن حاد عنها، ومن بين تلك الأمور ما ألقته الرحلة من أضواء على فريضة من أهم الفرائض وهي الصلاة. وبهذا يتبين لنا سمو هذه الفريضة، ومنزلتها العالية، فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد، فلا دين لمن لا صلاة له فهي الفاصل بين المسلم والكافر، وهي أول ما يسأل عنه العبد ويحاسب عليه يوم القيامة. . ولها آثارها الكبيرة في حياة الإنسان وسلوكه إذ تكفه عن الفحشاء والمنكر، وتكفّر خطاياه، ومع كل هذا فهي نظافةٌ للبدن والثوب والمكان. ورياضةٌ للجسم والروح والعقل، فهي إذاً قوةٌ روحيةٌ وبدنيةٌ وخلقية. أليست بهذا جديرةً بأن تفرض من فوق سبع سمٰوات؟ بلى إنها لجديرةٌ أن تفرض في تلك الليلة المباركة، فهي عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين. إنها معراجٌ إلى الله، بها يعبر المؤمن الحدود الدنيا ويستشرف الأجواء الإلٰهية المشرقة، ويجتاز طبقات البعد وليقترب من ربه كما قال سبحانه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: 19].

هذا وقد ورد أن الحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء، أنه ﷺ لما عُرِجَ به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع الله لأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة وقال: وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة.

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3342).

من مشاهد الإسراء

روى الإمام مسلم - بسنده - عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مررت ليلة أسرى بي على موسى بن عمران** عليه السلام، **رجل آدم طوال جعد، كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، وأرى مالكاً خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه، فلا تكن في مرية من لقائه**»[1] قال: كان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام.

في هذا الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه يقص علينا رسول الله ﷺ بعض المشاهد التي مرَّ عليها في ليلة الإسراء والمعراج، فقد مرَّ على موسى بن عمران عليه السلام، ثم أورد وصفه بأنه رجل (**آدم**) أي: أسمر، (**طوال**): بضم الطاء، أي: طويل، (**جعد**): جعودة الجسم هي اجتماعه واكتنازه (**كان من رجال شنوءة**) وهي قبيلة معروفة سموا بذلك من قولك: رجلٌ فيه شنوءة، أي: تقزز، وسموا بذلك؛ لأنهم تشانأوا وتباعدوا، وقال الجوهري: الشنوءة: التقزز وهو التباعد عن الأدناس.

كما رأى ضمن مشاهداته ليلة الإسراء والمعراج عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم أورد أيضاً بعض أوصافه (**مربوع الخلق**): وهو الرجل بين الرجلين في القامة، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير شديد القصر، (**سبط الرأس**): والشعر السبط: هو المسترسل ليس فيه تكسر.

ورأى ضمن مشاهده كذلك مالكاً خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه «**فلا تكن في مرية من لقائه**» قال: كان قتادة يفسرها أنَّ نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام. وهذا الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ [هود: 109]. هو من استدلال بعض الرواة، وأما تفسير قتادة فقد وافقه جماعةٌ منهم مجاهد والكلبي

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 418).

والسدى وعلى مذهبه ومعناه: فلا تكن في شكٍ من لقائك موسى.

قال الإمام النووي: وذهب كثيرٌ من المحققين من المفسرين وأصحاب المعاني إلى أنَّ معناه فلا تكن في شكٍ من لقاء موسى الكتاب، وهذا مذهب ابن عباس ومقاتل والزجاج وغيرهم.

والآية المذكورة في الاستدلال هي الآية الثالثة والعشرون من سورة السجدة وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ [السجدة: 23]، وفي الآية يخبر الله تعالى عن عبده ورسوله موسى عليه السلام: أنه آتاه الكتاب وهو التوراة، فلا تكن في مريةٍ من لقائه يعني ليلة الإسراء، وهكذا أطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في هذه الليلة على العديد من المشاهد، والأمور السمعية التي لم يرها أحدٌ قبله، ولا نبي ولا رسول وما ذلك إلا لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه أفضل خلق الله، وله من الخصوصيات ما أفرده الله تعالى بها . . وقد كان عليه الصلاة والسلام في إخباره عن موسى وعيسى يورد بعض الأوصاف الدقيقة والدالة على صدق وصفه ورؤيته لتلك المشاهد وللأنبياء.

وقد يسأل سائلٌ ويقول: كيف يتم هذا والأنبياء السابقون أمواتٌ وهم الآن في الدار الآخرة؟ وكيف نتصور أنهم صلوا مع النبي ﷺ وليست الآخرة دار عمل؟ وللجواب عن هذا نقول: إنهم كالشهداء بل هم أفضل منهم والشهداء أحياءٌ عند ربهم فلا يبعد أن يصلوا كما في بضع الأحاديث الأخرى وأن يتقربوا إلى الله وهناك وجهٌ آخر: هو أنَّ عمل الآخرة ذكرٌ ودعاء كما في قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: 10].

أو أنَّ الرسول ﷺ أُريَ أحوالهم التي كانت في حياتهم ومثلوا له في حال حياتهم كيف كانوا وكيف كانت أحوالهم كما جاء عنه ﷺ: «**كأني أنظر إلى موسى وكأني أنظر إلى عيسى وكأني أنظر إلى يونس عليهم السلام**»[1].

وهناك وجهٌ آخر: أن يكون أخبر عما أوحى إليه ﷺ من أمرهم وما كان منهم وإن لم يرهم رؤية عين، هكذا قال القاضي عياض رحمه الله كما أورد ذلك الإمام

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 419)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2891).

النووي في شرحه على صحيح مسلم وهو رأي طيبٌ ترتاح إليه النفس، إذا أنَّ الله تعالى قد أطلع رسوله عليه الصلاة والسلام على أمورٍ كثيرة تثبت لجميع الناس أنه مؤيدٌ من عند الله تعالى، وأنَّ الله سيتم نوره ولو كره الكافرون، وأنه قد رأى من مشاهد السابقين، ومن الأمور السمعية ما لم يره سواه مما يشهد له ﷺ بالخصوصيات وأنه أفضل خلق الله وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله.

ما يؤخذ من الحديث:

1 ـ رؤية الرسول ﷺ ليلة الإسراء للكثير من الآيات.

2 ـ إثبات أنه ﷺ خاتم الأنبياء وأن له كثيراً من الخصوصيات.